



الخطابة

مِيدَانُ الْكَلِمَةِ وَفَنُّ مُخَاطَبَةِ الْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ

الخطابة هي فنُّ مُسَاهَفةِ الْجُمْهُورِ وَإِقْنَاعِهِ وَاسْتِمَالَتِهِ، وَتُعَدُّ أَحَدَ الْفُنُونِ الثَّرِيَّةِ وَلَوْ نَا مِنْ أَلْوَانِ الْمُحَادَثَةِ الَّتِي رَافَقَتْ الْإِنْسَانَ وَاخْتَصَّتْ بِحُضُورِ الْجَمَاهِيرِ لِلتَّأثيرِ فِيهِمْ، لَا مُجَرَّدَ التَّعْبِيرِ عَمَّا يَجُولُ فِي النَّفْسِ. وَهِيَ كَفَنٌ يُمَارَسُ وَأُسْلُوبٌ يُطَبَّقُ، مِنْ الْفُنُونِ الْقَدِيمَةِ جِدًّا؛ إِذْ لَمْ تَحُلْ مِنْهُ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ، فَالاسْتِعْدَادُ لَهَا مَخْلُوقٌ مَعَ الْإِنْسَانِ الَّذِي لَا غِنَى لَهُ عَنِ الْإِبَانَةِ لِغَيْرِهِ عَمَّا فِي صَدْرِهِ، وَعَنْ مُحَاوَلَةِ إِقْنَاعِهِ بِصِدْقِ مَقَالِهِ وَسَدَادِ رَأْيِهِ.

وقد اهتمَّ النُّقَّادُ الْعَرَبُ بِمُؤَاصَفَاتِ الْخَطِيبِ، الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى: جَهَارَةِ الصَّوْتِ، وَجَمَالِ الْهَيْئَةِ، وَحُسْنِ التَّبَرُّعِ، وَسَلَامَةِ جَهَازِهِ الْكَلَامِيِّ مِنَ الْعُيُوبِ، وَأَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ نَصٌّ يَحْتَوِي عَلَى الْمُقَدِّمَةِ وَلُبِّ الْمَوْضُوعِ وَالْخَاتِمَةِ وَمُؤَاصَفَاتِ النَّصِّ، وَأَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ الْقُدْرَةُ عَلَى الْإِقْنَاعِ بِشَكْلِ جَيِّدٍ مَعَ التَّقْلِيلِ مِنَ التَّنَحُّحِ وَالسَّعَالِ، كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ تَجَنُّبُ بَعْضِ الْحَرَكَاتِ كَالْعَبَثِ بِاللَّحِيَّةِ وَالْحَرَكَاتِ الْمُشْبِنَةِ، هَذَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ الْخُطْبَةَ ذَاتَهَا يُشْتَرَطُ أَنْ تَكُونَ سَهْلَةً لِلُّغَةِ مَعَ مُرَاعَاةِ اسْتِحْدَامِ اللُّغَةِ الْمُنَاسِبَةِ، بَحَيْثُ يَتَحَقَّقُ الْإِقْنَاعُ، وَيَجِبُ عَدَمُ اسْتِعْمَالِ

أَلْفَاطٍ خَاصَّةٍ فِي مُخَاطَبَةِ الْعَامَّةِ، وَلَا كَلَامِ الْمُلُوكِ مَعَ السُّوقَةِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يُحَدِّثَ الْخَطِيبُ كُلَّ قَوْمٍ بِمَا يَفْهَمُونَ، كَمَا يَجِبُ عَلَى الْخَطِيبِ مُرَاعَاةَ قُدْرَةِ الْمُتَلَقِّينَ عَلَى مُوَاصَلَةِ تَلْقِي الْخُطْبَةِ، وَمَنْ تَمَّ يَضَعُ الْإِيْجَازَ مُوَضِعَهُ، وَالْإِطَالَةَ مُوَضِعَهَا، هَذَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى مُرَاعَاةِ طُولِ النَّصِّ الْمُرَادِ الْقَاوِمَةَ، وَذَلِكَ بِالنَّظَرِ إِلَى اسْتِعْدَادِ الْمُتَلَقِّينَ لِلتَّلْقِي، فَضْلًا عَنْ تَخْيِيرِ اللُّغَةِ الْمُنَاسِبَةَ لِنَوْعِ الْخُطَابَةِ، فَتَنْوَعُ بَيْنَ الدِّينِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالْإِحْتِفَالِيَّةِ وَالْقَضَائِيَّةِ. وَلِلْعَرَبِ تَارِيخٌ حَافِلٌ بِالْخُطَابَةِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا؛ فَفِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ كَانَتْ مَهْمَةً الْخُطَابَةُ تَقْتَضِرُ عَلَى النَّصْحِ وَالْإِرْشَادِ

والتَّفَاخُرِ، وَكَذَلِكَ الْمُنَافَرَةُ وَالِدَّعْوَةُ إِلَى حَالَةِ السَّلْمِ وَمُحَاوَلَةُ حَقْنِ الدِّمَاءِ، وَكَانَتْ عَادَةً مَا تُعْقَدُ فِي الْأَسْوَاقِ وَالْمَحَافِلِ وَالْوُفُودِ عَلَى الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ.

وقد اشتهر من خطباء ذلك العصر «قس بن ساعدة»، فهو أول من قال في خطبته: (أما بعد)، وتسمى (فضل الخطاب)، وأيضا «سهيل بن عمرو» الذي أسلم وحسن إسلامه، و«ليد بن ربيعة»، و«هرم بن قطبة الفزاري».

ومع ظهور الدعوة الإسلامية أهل على الخطابة زمان جديد، كان إيدانا بارتقائها وعلو شأنها، فقد اعتمدت الدعوة الجديدة على الخطابة في نشرها، والدفاع عن مبادئها ضد خصومها، وكذلك صنع المناوئون لها، ثم إن الإسلام بالإضافة إلى اعتماده على الخطابة في نشر الدعوة، قد جعلها ضمن الشعائر التعبديَّة، ففرض خطبة كل جماعة، لا تصح الصلاة بدونها. كما أن هناك الخطب المشروعة في الحج، وفي الاستسقاء، وفي الحُسوف والكُسوف، وفي الزواج، والجهاد وغيرها، كما أن الشريعة الإسلامية تحث دائما على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإسداء النصح للآخرين.

ولقد ارتقت الخطابة في ظل الدعوة الإسلامية، وبلغت الغاية في الكمال مظهرًا وجوهراً، أو أداءً ومضمونًا، وكان من أكبر

وقد بقيت الكثير من أغراض الخطابة التي كانت قبل الإسلام أيضا بعد الإسلام، مثل الزواج والصُّلح، والحث على القتال، والأغراض السِّيَاسِيَّةِ، والقضاء وغيرها، وبقيت أيضا كثير من عادات الخطباء العرب قبل الإسلام، واستمرت إلى ما بعده، مثل تكاء الخطيب على العصا، وإلقاء الخطبة من مكان مرتفع، أو فوق الرَّاحِلَةِ، وقد خطب النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو على ناقته في حجة الوداع، ومن العادات أيضا لف العمامة، والإشارة أثناء الإلقاء، وغير ذلك.

ثم إن الخطبة في الإسلام اكتسبت مزايا وخلافا طيبة لم تكن فيها من قبل؛ فقد صارت تفتتح بحمد الله والصلاة والسلام على الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والتشهد بالشهادتين، والاستشهاد بأي من القرآن الكريم، وكلام النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والالتزام في مضمونها بأدب الإسلام وشريعته، ما يعني إهمال بعض الأغراض التي كانت موجودة من قبل، والترفع بالخطابة عنها، مثل التناثر والتفاخر بالأنساب الجاهلية، ونحو ذلك مما كان سائدا قبل الإسلام.